

الفقه الاسلامي

تاريخه وتطوّراته

بقلم الاب لامنس البسوي

١

نشأة الفقه

انتشار الدين الاسلامي خارج حدود الجزيرة العربية ، مع انشاء الخلافة وتنظيم مؤسساتها ، دفع الى تقرير « الفقه » ، ومعناه الاصلي الفطنة والحكمة . فهو يقابل اذاً مثيله عند الرومانيين (juris) و *prudencia*) وبشبه الحق الروماني ايضاً بتجديده القائل انه علم بالاحكام والشرائع الالهية والبشرية (*rerum divinarum atque humanarum notitia*) الا ان تحديد الفقه الاسلامي لا يتسع لما يتسع له تحديد الحق الروماني . اما في ما خص موضوع هذا الفقه فان النظرية الاسلامية السنية تقرّ ، خلافاً للمعتزة ، انه ليس من اعمال حسنة او سيئة مجتد نفسهما وخارجاً عن احكام الشريعة المنزل . وان القيمة الادبية للاعمال تتعلق بارادة الله وحدها ، تلك الارادة المدونة في القرآن . فالاسلام اذاً ، في جوهره ، ديانة شرعية صرفة . وليس فيه ما يُترك لاختيار المؤمن او لتقديره الشخصي . وعليه فان الفقه يشمل جميع الواجبات التي تفرضها الشريعة القرآنية على المسلم بصفته المثلثة مؤمناً ، ورجلاً ، وفرداً من رعية حكومة دينية . فيكون نص القرآن ، في نظره ، « خطبة في التاريخ العام » يطلعه على مصير الشعوب من حيث تطوّراتها الدينية ، ويظهر له سمو الجماعة الاسلامية على ما سواها من الجماعات البشرية . ويكون للشريعة ان تشرح وتؤوّل هذا الوحي الالهي ، وتفرض على المؤمنين احكام الحقوق الشخصية ،

والجزائية ، والحق العام ، والحق الدولي بما يحجزه من تحديد للالاقات بين المسلمين وغيرهم . ثم تفرض عليهم تنظيم حياتهم الدينية والسياسية والاجتماعية تقارب مظاهرها المتنوعة وترتيبها كلها على رغم تشعباتها ، حتى لا يبقى عمل واحد دون صفة مميزة ، بل ترى جميعها مقسومة الى « واجبات » او « فروض » ، وإلى اعمال « مباحة » او « جائزة » ، وإلى اعمال « محرمة » او « مكروهة » فقط . ثم ان هذه الشريعة لا تقف عند حدود ارضية بل تمتلئ بالمؤمن وتنبهه إلى ذهب حتى في « دار الحرب » ، فليس للمؤمن من جنسية الاجنبية الاسلامية . ولا تعتبر الشريعة غيرها ، اذ تسم كل عمل يأتيه المسلم باسمه الخاصة .

فنشج من ذلك ان الفقهاء او العلماء المتكفين على هذه الدروس كانوا ، فوق صفتهم القضائية او الفقهية ، لاهوتيين واخلاقيين تحيطهم الشريعة الالهية باطار خاص يشير الى انهم مفسرو تلك الشريعة السامية . هذا في اول الامر . ثم اخذ التقدم يميزون بين « المتكلم » او اللاهوتي المهم بمقائد الايمان و« الفقيه » الطائف على درس الحق الوضحي او الواجبات . ذاك الحق الذي قاتر في بعض اقسامه بالحق الاجنبية كالحق التلمودي البادي اثره خصوصاً منذ هجرة النبي الى المدينة والحق الروماني - البيزنطي الذي كان منتشرًا في انحاء سورية ومصر عندما وفد اليها العرب . على ان اختراع الاحاديث مكن الفقهاء من ان ينسبوا الى النبي او الى كبار الصحابة كل المكتسبات الاجنبية . ثم اتى الاجماع فادخل كل هذه العناصر الغربية وبلدها ، وزجها بغيرها من العناصر الاصلية الوطنية ، فألف منها مجموعاً متماسكاً حتى ان الناظر الى الفقه الاسلامي اليوم يشعر بوحدة ظاهرة بل بابتكار واضح .

« اصول » الفقه

اذا اخذنا بالوجهة النظرية نرمي ان الفقه حق موحى بكلياته وجزئياته . وعليه فهو متصف بالجمود بعيد عن المرونة وقابلية التنوع . وهو يستمد حياته من الاصلين المهيمنين في الوعي الاسلامي وهما القرآن والسنة . هذا من الوجهة النظرية . اما من حيث العمليات فان الحاجة لم تلبث ان اجتهدت في توسيع هذا المدلول

النظري لاجئة الى غير ما تقدم من « الاصول » . وكما ان السنة اتت شارحة ومتممة القرآن ، كذلك دُفع القوم بالاختبار الى القول ان الفقه لا يستغني عن مونة المنطق . فتقرر من ثم ان تحمل المشاكل الجديدة بان يطبق عليها مبادئ وضعت لما شابهها من المشاكل السابقة . كما استنتج مثلاً من كون الخمر محرمة تحريم كل شراب مسكر . وكما استنتج ايضاً من كون « الميتة » ، وهي لحم الحيوان الميت ، تصبغ حلالاً في الضرورة القصوى ، قاعدة قائلة ان ليس للحاجة من شريعة . وهكذا اصبح « القياس » اصلاً جديداً من اصول الفقه ، على رغم بعض الاحاديث المأكدة التي ارردها البخاري في « صحيحه » . على انه اذا كان في القرآن او في السنة حكم سابق يعاكس ما قد يحكم به القياس فلا يمكن ان يتمدى هذا الاصل حكم الاصلين السابقين . من ذلك ان السارق تقطع يده ، ولكن لا يقطع لسان النمام او المجذف كما قد يحكم به القياس . ومن ذلك ايضاً ان « الكلب الاسود يقطع الصلاة » ولكن لا يقطعها سائر الكلاب ، لان الحديث نص على « كلب اسود » . وهلم جرا . وهناك « اصل » رابع للفقه وهو ما يدعى « بالاجماع » المقابل لما كان يعرفه الرومانيون بـ *Consensus* « *universalis* » وسنتكلم عنه بعيد هذا . واخيراً ان لم يكن للفقهاء من نص واضح في القرآن او في السنة ، وان لم يكن من سابق يمكنهم ان يقيسوا عليه ، فانهم يلجأون الى « الرأي » او الحكم البشري . على انه من المقرر ضمناً ان الالتجاء الى هذه الطريقة لا يمكن ان يكون الا من قبيل الشذوذ ولا يمكنه ان يخول « الرأي » الحق بان يُعتبر « اصلاً » خامساً للفقه . وهو تحديد نظري ليس غير . وهناك ايضاً من « اصول » الفقه الثنوية ما يُطلق عليه اسم « الرُف » او « العادة » ، وهو الامر الذي يستند الى الفائدة العامة الدائمة ولا يخالف في شيء . الاصلين الاولين اي القرآن والسنة ثم تأتي ايضاً « المصلحة » او الخير العام ، وهو غاية الشريعة . وقد توسع الحنفيون بهذا المبدأ فولدوا « الاستحسان » يأخذون به عندما يرون ان نتائج القياس الدقيقة قد تؤول الى ضرر كبير .

المذاهب الفقهية

ان من يعتبر اصول الفقه المختلفة ويرى فيها تقوّق العناصر التقليدية او النظرية ظاهراً كان ام ضمناً، ويعتبر من جهة اخرى اهمية كل من الاصول الاربعة حقيقةً كانت ام مزعومة، لا يلبث ان يتوقع ظهور طرق مختلفة في الاستنباط والتطبيق. وهكذا كان. اما هذه الطرق او المدارس الفقهية فتعرف باسم « المذاهب ». وقد نشأت من عهد قديم اذ كان كل من الفقهاء يفتش عن طريقه، فحصل تنوع مهم في الآراء ولاحكام ادى، في كثير من الاحيان، الى مناظرات قوية بل الى عراك فعلي في الاسواق والمجامع. وكان على المظنونين بانهم من اصحاب « الرأي »، المنصرفين الى هذا الاصل اكثر من انصرافهم الى القرآن والسنة، ان يبذلوا الجهد كله في تلك المارك كي يحصلوا على مكان مرض. على ان تلك المناظرات الشديدة لم تكن في سبيل تعزيز المبادئ وحدها، بل كانت خصوصاً، وقبل كل شيء، في سبيل استهواء الجماعات من الشعب، وفي سبيل الحصول على رضى السلطة، وهي وحدها توزع المناصب القضائية. الا ان تلك المذاهب القديمة لم تلبث ان تلاشت الواحد بعد الآخر على اثر الحملات القوية التي كانت تقوم بها منافساتها من المذاهب الجديدة. هكذا تلاشى مذهب الامام الاوزاعي السوري († ٧٧٤). وهكذا تلاشى ايضاً مذهب المؤرخ والمفسر المشهور الطبري. وهكذا كان نصيب المذهب الظاهري الذي أسسه داود بن علي († ٨٨٣) والذي انتشر في بلاد فارس والاندلس والمغرب. وقد دعي بالظاهري - ويُدعى بالداودي ايضاً نسبةً الى المؤسس - لان اصحابه لا يقبلون من اصول الفقه الا القرآن والسنة وهم يشرحونها حسب المعنى « الظاهر » او الحرفي الخارجي، معرضين اشدّ الاعراض عن كل العناصر النظرية والشروح التأويلية. على انهم قد يعودون اليها احياناً بطرق غير مباشرة. من ذلك ان القرآن يحرم على المرء ان يشتم والديه (١٧ : ٢١) فتستنتج جميع المذاهب انه يحرم ضرب الوالدين ايضاً. اما الظاهرية فيقولون ان الامر « مفهوم » فلا حاجة الى ذكره. ومن ذلك ان بعض الاحاديث يحرم

« الشرب » في آتية الذهب والنضة . فيستتج السنيون انه يحرم الاكل فيها ايضاً . اما الظاهرية فلا يقرّون ذلك بل يكفرون بالنص الحرفي . . .

المذاهب السنية

على انه اعتباراً من القرن السابع الهجري ، هدأت هذه المعارك الفكرية ، واجمع القوم على اقرار اربعة مذاهب اعتبرت كلها سنية اي صحيحة ارثوذكسية ، كما نقول . اما انتشار هذه المذاهب في المناطق المختلفة فكان ميباً عن علل ثنوية بسيطة اكثر منه عن اسباب جوهرية . من ذلك ان تابعي المذهب كانوا اقل تعلقاً بقيمة المذهب نفسه منهم بشخصية الامام المؤسس او بشخصيات تلامذته التابعين ، كما نتحقق ذلك في ابي يوسف القاضي عند الحنفية وفي تلميذه الامام الشيباني († ٨٠٥) . وكانوا يتأثرون خصوصاً ببيل السلطة الى احد المذاهب وتتدخلها الفعلي في نشره كما فعل امراء الاتراك في نشر المذهب الحنفي حيثما كانوا يملكون . من ذلك ايضاً ما يلاحظه بكل دقة وصواب الجغرافي المقدسي اذ يقول ان المذهب الشافعي الذي اسسه الامام الاوزاعي والذي بلغ انتشاره بلاد الاندلس ، كان سبب تلاشيهِ المطارد انه كان ، في مناطق انتشاره الجغرافية ، خارجاً عن الطرق المتبعة في سير الحجاج الى مكة .

اما مذهب الامام الشافعي († ٨١٩) الذي درس مدة في بغداد ، فقد انتشر انتشاراً يُذكر في اول عهد العباسيين الذين كان يت اليهم المؤسس بصلة الذنب ، وظلّ على تفوقه حتى ظهر ابو يوسف تلميذ الامام ابي حنيفة ، فتنازعه التفوق في العراق . اما في سورية فطرد المذهب الشافعي المذهب الاوزاعي المذكور آنفاً . وكان ان اتى بعد ذلك الحنابلة فاجهزوا على هذا المذهب السوري الوطني . وكان الشوافع قد ساروا من العراق منتشرين على شواطئ خليج المعجم ، وفي جنوبي الجزيرة العربية انتشروا في افريقية الشرقية ، والارخبيل الهندي ، وفلسطين ، والحجاز ، ومصر السفلى . وفي القاهرة تبنى الامام المؤسس مع الجامع الازهر الشهير ، الذي أسسه الفاطميون ، والذي يوزع اليوم على طلابه الآتين من مختلف انحاء العالم الاسلامي ، التعليم الشافعي . هذا وقد

اشتهر كثير من العلماء الشافعيين كالثعالبي ، والنسائي المحدث صاحب «السنن» ،
والاشعري ، والماوردي (١٠٥٨ هـ) وغيرهم .

اما مذهب الامام مالك بن أنس (٧١٥ هـ) فقد نشأ في المدينة ، مهد الحديث
الاصلي و«دار السنة» . فهو يزعم اذا انه يحفظ العقيدة صحيحة طاهرة راقية
في احكامه الى السنة الاولى التي تبناها النبي واصحابه الاولون . وقد دون
«موطأ» مالك العادات الجارية في المدينة ، وشريعة الحجاز التقليدية . وقد
تجاوز هذا المذهب الحجاز فانشر في الاندلس حيث حل محل المذهب الاوزاعي ،
وعمل اصحابه بكل ما اوتوا من الوسائط في سبيل اقضاء المذاهب الستة
الاخري . ولا يزال منتشر حتى اليوم في المغرب ، وافريقية الغربية ، والسودان ،
وفي سائر انحاء افريقية الشمالية ما عدا مصر السفلى ، ومذهبا شافعي كما ذكرنا .
ثم في المناطق العربية المهادية لخليج المعجم .

واما المذهب الحنفي المنسوب الى ابي حنيفة (٧٦٧ هـ) فساند في جميع البلاد
التركية ، والبلاد التي انفصلت عن السلطنة العثمانية - وقد نشر الاتراك
قدمنا المذهب الحنفي كذهب رسمي للدولة - وفي جهات آسية المتوسطة والمهند .
ويبلغ عدد تباعه نحو نصف عدد المسلمين في العالم . ويأتي بعد هذا المذهب من
حيث العدد ، المذهب الشافعي الذي كان اوفرها عدداً قبل ظهور الاتراك .

بقي مذهب الامام احمد بن حنبل (٨٥٥ هـ) ، صاحب «المسند» في الحديث ،
وهو يكاد يكون على وشك الاضمحلال . ولم يتمكن الحنابلة من اقرار انفسهم
كاتباع مذهب رسمي الا منذ القرن السادس للهجرة ، وذلك بعد كثير من
المعارك المصطفية بالدم احياناً . ولم يكن الاسلام يعتبرهم قبل ذلك الا من اصحاب
الحديث ، ولا يظهر ان مؤسسهم رمى الى ابعاد من هذه الفاية . ومما يميز هذا
المذهب روحه الضيقة وميله الشديد الى المشاحنة والدراك ، فهو اكثر المذاهب
تعصباً ، حتى ان الحرف من الحنابلة دفع معاصري الطبري ، ذاك المفسر المسالم
المحافظ ، الى تحفة جسته لئلا لانه لم يكثر في كتبه من مدح ابن حنبل امامهم
ومؤسس مذهبهم . زد على هذا تعلقهم الشديد بنص القرآن والحديث على
طريقة الظاهرية ، الا انهم اقل تطرفاً ومبالغة . وليس بين المذاهب الاربعة من

ببغض الصوفية بغض الحنابلة ، كما ان ليس بينها من يبلغ شأور الحنابلة في تضييق مجال الاجماع والقياس . وهم ، فوق ذلك ، يمارضون كل المعارضة طريقة الإجماع . « بالاختزال » تلك الطريقة المناسبة المرفقة بين نظريتي الحنابلة والمعتزلة . والحنابلة يرفضون كذلك كل حجة في الفقه لا تستند الى سلطة النبي او احد صحابته . هذا وقد انتشر المذهب اولاً انتشاراً يُذكر في سورية والعراق ، حتى ظهر السلاجقة فعملوا على ملاشاته بنشرهم المذهب الحنفي . وكان أن ظهر في القرن الرابع عشر ابن تيمية وتلامذته فعملوا نوعاً على انهاضه في سورية . ألا ان تأثير الانوارك تابع الحركة التي احدثها السلاجقة فكاد يقضي على مذهب ابن حنبل في تعزيزه مذهب ابي حنيفة ، المدعواحياناً « بالامام الاثنى عشر » . وذلك ان هذا المذهب الذي نشأ في محيط العراق المتنوع الشعوب الكثير المتباغل ، يظهر اقرب المذاهب الى الساهل المعقول ، وادناها الى استعمال « الحيل والمخارج » الفقهية والاساليب النظرية .

هذا وقد ظهر مؤخرأ ، في منتصف القرن الثامن عشر ، الوهابيون فجددوا المذهب الحنبلية ، واقرّوه في وسط البلاد العربية بعد ان زادوا في تضييقه ، وفي مقاومته كل تجديد .

(المبحث صلة)

